في هاتين القصة ، يتخلى زين العابدين الحسيني عن طموح بناء اسطورة فلسطينية غنائية ، ليرى نفسه دفعة واحدة في لهب المعادلة الواقعية المباشرة ، مستعيدا لحظات البطولة الشعبية في زمن القمع الصهيوني . هكذا تأتي هاتين القصتين وكأنهما القاعدة التي ينتصب عليها طموح تحويل الممارسة الثورية الى حلم اسطوري كامل، الى وعي جماعي حاد وعنيف .

الحركة والحوار

الحركة الاساسية في هذه المجموعة ، يقوم بها الحوار . حتى وكأن السرد القصصي يغيب داخل اشكال الاستنطاق التي تقوم بهـا شخصيات القصص لواقعها . من هنا غياب التشكيل والحجم والتركيز على التداعيات الداخلية في بعض الاحيان. أي أن اللغة القصصية لا تزال اسيرة مقترب خارجي ، لا يوحد الظاهرات باسبابها ، بل تبقى القصة وكأنها محاولة للاجابة على اسئلة يطرحها الواقع ، وليست اسئلة تفرزها تناقضات الواقع.

من هنا نصل مع قصص هذه المجموعة الى مشارف بدايات حقيقية . الى مشارف الحركة الواقعية وقد تحولت في اجساد صانعيها الى فعل انساني ، له قدرة الاسطورة الواقعية النابعة من سواعد الذين يصنعون المستقبل بدمائهم .

« خميس يموت اولا » ، لان الموت هو الفعل الفلسطيني الذي يتوحد بالعناصر ، ويعيد صياغة معادلة الواقع . لذلك يبقى « هو » مؤشرا على فعل مستقبلي القسمات ، وكائنا في جميع الامكنة ، مائتا في جميع الموت ، وحيا في الشجر والماء . انه ليس الحزن الرومانسي ، بل نقيضه ، انه الحزن المدمر الذي هو الوجه الاخر للحب . انه الحقد الثوري الذي يصنع المستقبل . فحين كانت « المهرة » تستقبل اولادها ، الذين يصنعون مستقبلها ، كان خميس يموت في سبيل الوصول الى هذا المستقبل . لذلك تشكل هذه المجموعة علامة على قدرة الممارسة الجماهيرية على التحول الى ادب جديد لا يزال يعاني الام ولادته .

صراخ في ليل طويل

عندما كتب جبرا ابراهيم روايته الاولى « صراخ في ليل طويل » في القدس صيف ١٩٤٦ ، كان يؤسس زمنه الروائي والفني على قاعدة ثابتة ، سوف تبقى اللحن الاساسي في جميع اعماله الفنية . رفض الماضي العتيق والتقدم الى الامام ، تحطيم التقاليد البالية واستشراف مستقبل تلعب فيه القيم الحديثة دورا مقررا . هذا اللحن الاساسي يبرز جنينيا في الرواية الاولى ، الى جانب البطل المثقف — الذي سيبقى باشكاله المختلفة بطلا لجميع روايات جبرا اللاحقة. فالثقافة هنا حين تبدأ تلعب دورها تصفي حساباتها مع الماضي . تنقسم على نفسها ، لترفض اعادة احياء الماضي الميت، ولتنطلق في بحثها عن العناصر الحية ، المستقبلية في ثنايا الواقع .

العلاقة الانعكاسية

تتحلق الرواية حول شخصية امين ، الذي يتكلم بصيغة المفرد منذ السطر الاول وحتى النهاية . فأمين هو انعكاس حقيقي لشروط اجتماعية محددة. انه مثقف ينتمي الى الطبقات الكادحة ، لكن ثقافته تصبح سلما للترقي الاجتماعي . وهو يحمل في داخله جميع تناقضات المثقف ، التي تبدأ بالخيبة والفشل الشخصي (فشل زواجه من سمية) مرورا بعلاقته مع عنايت هانم وتاريخ اسرتها العريقة ، وصولا الى احراق الماضي والتطلع الى المستقبل . داخل هذه الدائرة نعثر على شخصية امين ، بوصفها انعكاسا لشروط أفرزتها ، تحاول من جديد عكس ذاتها (ثقافتها) على هذه الشروط في سبيل تغييرها . فيحترق الماضي متلاشيا (وفاة عنايت هانم) ويبرز المستقبل على ايقاع الحرائق (طرد امين لسمية) . هنا تصبح شخصية امين محطة للانعتاق من الماضي،

---

* جبرا ابراهيم جبرا : **صراخ في ليل طويل** . منشورات اتحاد الكتاب العرب . الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٧٤ .